التطرف صناعة انسانية

أ.م.د. علي عباس مراد(*)

من كفَّرَ مسلما فقد كفر..
حديث نبوي شريف(١)

الملخص

أن التطرف صناعة اجتماعية، مثلما أن نقائضه، الاعتدال والوسطية، والتسامح والانفتاح، صناعة اجتماعية أيضا، والصناعة الاجتماعية، أيا كان موضوعها وهدفها والقائم على أمرها، لا تتماثل في طبيعتها ولا مقدماتها ونتائجها مع الطبيعة والمقدمات والنتائج النمطية الميكانيكية للصناعة المادية السلعية، فالإنسان الصانع والمصنوع، كائنات حية ومتحركة ومتغيرة، بما يجعل صناعة الإنسان للإنسان اجتماعيا، صناعة حية ومتحركة ومتغيرة في طبيعتها ومقدماتها ونتائجها جملة وتفصيلا.

Extremism humanitarian industry
That extremism industry social, as that Negative , moderation, tolerance and openness, the industry also social, and industry social, whatever the object and purpose and based on her, are not identical in nature nor introductions and outcomes with nature and introductions and typical results mechanical industry physical commodity, Man manufacturer and made , organisms and moving and changing, making the industry of man by man socially, industry alive and moving and changing in nature and introductions and results altogether.

أود البدء هنا بالقول، إن النشاط الإنتاجي الصناعي المادي لم يكن غائبا يوما عن الحياة الإنسانية، لكنه لم يصبح النشاط الغالب على هذه الحياة والمميز لها بطابعه الذي جعل منها حياة صناعية وجعل عصورها عصورا صناعية، إلا بعد أن بدأت أوربا مرحلة حداثتها، وانتقلت من النظام الإقطاعي إلى النظام الرأسمالي الذي ابتدأ نظاما رأسماليا تجاريا ثم أصبح وما زال نظاما رأسماليا صناعيا مع اختلاف طبيعة المنتجات الصناعية باختلاف مراحل التطور

(*) كلية العلوم السياسية، جامعة بغداد.

الصناعي. وإذا كانت بداية العصر الصناعي نعمة حلت على الدول الغربية بالتأكيد، فقد كانت وبالتأكيد أيضا، نقمة حلت على البلدان الآسيوية والأفريقية والأمريكية اللاتينية التي استعمرتها الدول الغربية لتجعل منها منتجا للمواد الأولية بأثمان بخسة، ومستهلكا لإنتاجها السلعي ثم الخدمي بأثمان باهظة. ولم تتوقف تلك النقمة عند هذا الحد، بل تفاقمت على تلك المستعمرات بعد أن استقلت شكليا، لكنها بقيت مستعمرة فعليا، حيث تطور النشاط الصناعي الغربي من نشاط ميكانيكي ليكتسب طابعا الكترونيا مصمما ومُسَيطَرا عليه رقميا وسيبرنتيا، واتسع نطاقه حتى طال مفردات الحياة الإنسانية وتفاصيلها كلها. وزاد الطين بلة، أن الدول الغربية وسعت نطاق تطبيقاتها لبرامج وأساليب ووسائل النشاط الصناعي في التفكير والتصميم والتصنيع والإدارة، بخصائصه العقلانية والتخطيطية والبيروقراطية، ومدته منذ بداياته الأولى وبكل ما طرا عليه من اتساع وتطور ليشمل بنطاقه الحياة الاجتماعية أيضا بشتى أوجهها وأبعادها، عبر تطبيقه في عمليات الصناعة المجتمعية والسلطوية للإنسان صناعة نمطية متكررة متماثلة موسعة وفق نماذج مصممة ومخططة سلفا (Mass Production Human) مما كان يسمى (التربية)، ثم أصبح يسمى (التنشئة والتنشئة الاجتماعية)، وبات يتجه اليوم ليحمل مسمى (الهندسة الاجتماعية)، وهو ما انعكست آثاره الضارة بشكل مباشر وأساس على مجتمعات البلدان غير الصناعية التي تعجز عن التدخل الفعال والمؤثر في هذه العمليات، لكنها تتعرض لنتائجها السلبية، وهذا ما سنحاول فيما يلي معالجة الجانب المتعلق منه بالصناعة الإنسانية للتطرف.

أولا: في معنى التطرف..

تستدعي معالجة أي موضوع، البدء بتحديد معاني ودلالات مصطلحاته على المستويين اللغوي والاصطلاحي، تجنبا للخلط وسوء الفهم، وينطبق ذلك على (التطرف) الذي سنحاول فيما يلي تحديد معانيه ودلالاته اللغوية والاصطلاحية.

التطرف لغة واصطلاحا..

التطرف لغة: يُشتق التطرفُ لغةً من "الطرف" أي "الناحية" أو "منتهى كل شيء"، وتَطَرَّفَ "أتى الطرف" أي "جاوز حد الاعتدال ولم يتوسط"، وتستدعي كلمة "التطرف" فيما يوازيها ويناظرها كلمة "الغلوّ" التي تعني تجاوز الحد، وهي من "غلا" بمعنى "زاد وارتفع وجاوز الحد"،

فيقال الغلو في السِعر والغلو في الأمر والغلو في الدين لكل مبالغة وتجاوز للحد في شيء من ذلك.

التطرف اصطلاحا: يُستخدم التطرف اصطلاحا ضد "الاعتدال" من "العَدل"، و "الوسطية" من "الوسَط" الذي يقول الراغب الأصبهاني في كتابه (المفردات في غريب القرآن) إن الوسط يعني "الواقع بين طرفين"، لذلك يأتي المعنى الاصطلاحي للتطرف مضادا للمعاني المترادفة لد "العدل والاعتدال" و "الوسط والتوسط".

وإذا كان لفظ التطرف لم يرد لا في القرآن ولا السُنة، فقد استعمله بعض العلماء بمعنى الوقوف في طرف الشيء والخروج فيه عن حد التوسط والاعتدال، قال أبو بكر أحمد بن علي الجصاص: (طرف الشيء إما ابتداءه أو نهايته، ويبعُدُ أن يكونَ ما قَرُبَ من الوسط طرفاً)، وبذلك، فإن التطرف يدل على الذهاب إلى أحد طرفي الشيء مجلسا أو موقفا فكريا أو عمليا، سواء بالذهاب إلى الطرف بالتشدد (الإفراط)، أو بالذهاب إلى الطرف بالتساهل (التفريط)، وهو ما جعل التطرف في خطاب المتكلمين مرادفاً للغلو، فكل مغال في الدين مبالغ فيه بإفراط متطرفٌ، وكل جافٍ للدين مُجانب له بتفريط متطرفٌ أيضا، لكن الشائع هو استعمال التطرف للدلالة حصرا على المبالغة والمغالاة في التشدد (الإفراط) وليس التساهل (التفريط). ومن مرادفات التطرف أيضا (التعمّق) الذي روي عن النبي (ص) نهيه عنه في قوله "إياكم والتعمق في الدين"، والتعمق المنهي عنه هنا حتى ولو كان في الدين، هو التعمق الدال على المبالغة والغلو والتشدد والإفراط، وهو المعنى الذي تدل عليه تتمة الحديث: "..فإن الله تعالى جعله سهلاً، فخذوا منه ما تطيقون، فإن الله يحب ما دامَ من عملٍ صالحٍ، وإن كان يسيراً"، وهو المعنى ذاته الذي ذهب إليه ابن منظور حين قال: "المتعمق: المبالغ في الأمر، المتشدد فيه، الذي يطلب أقصى غايته"، والمبالغة والتشدد وطلب أقصى الغاية إفراط، والإفراط وجه من أوجه التطرف المنهي عنه، مثلما أن التساهل والتقصير في طلب الغاية تفريط، والتفريط الوجه الآخر للتطرف المنهي عنه أيضا، ولعل مما يزيد خطر التطرف، اقتران صورتيه (الإفراط والتفريط) في المنظور الإسلامي بالجهل، فقد روي عن الإمام علي (ع) قوله: (لا ترى الجاهل إلا مُفرِطاً أو مفرِّطاً)، ويأتي الجهل في الاستخدام القرآني عادة عكس العقل والحلم والحكمة.

ويستدعي التطرف، بمعناه الشائع المقترن بالغلو والمبالغة والتشدد، ويتطلب انغلاق المتطرف على ذاته، وتعصبه لرأيه، بما يؤسس في النهاية لرفضه للآخر المختلف عنه، متطرفا كان أو معتدلا، وتسفيهه لأفكاره ومعتقداته، طالما أن المتطرف، فرداً كان أم جماعة، يعتقد في نفسه وأفكاره الصواب المطلق والصلاح الكامل والنهائي، ولا يقبل حتى مجرد التفكير في تغيير آرائه وقناعاته، ويرفض تعدد الآراء والأفكار ووجهات النظر، ولا يرضى بالحوار مع الآخر أو التعايش معه ومع أفكاره، وقد يصل به الأمر إلى تخوين الآخرين سياسيا وتكفيرهم دينياً، وبما ينتهي غالبا بإباحة دمائهم. ويبدأ التطرف يبدأ عادة تطرفا فكريا، لكنه يمكن أن يتخذ أيضا شكلا عمليا–سلوكيا، ويمكن أن يكون التطرف، فكريا كان أو عمليا، سلميا، مثلما يمكن أن يكون عنيفا أيضا، ولكن خطر التطرف يزداد حين يتحول من تطرف فكري إلى تطرف عملي، ثم يزداد خطر التطرف الفكري–العملي ويتضاعف أكثر فأكثر حين يتحول من تطرف فكري–عملي سلمي إلى تطرف فكري–عملي عنيف. ويبدو التطرف الفكري–العملي العنيف نتيجة وانعكاسا لثلاث علل:

١. علة التشبع بالتطرف الفكري والإصغاء للذات، ومن ثم إنكار أن يكون لدى الآخر المختلف ما يستحق الإصغاء إليه، بما يمنع كليا من الأخذ عنه ولا حتى القبول بوجوده.

٢. علة الاعتقاد بانعدام، أو على الأقل عدم جدية ولا جدوى، الفرص والوسائل السلمية المتاحة للمتطرف للتعبير عن أفكاره وتحقيق أهدافه.

٣. علة تعرض المتطرف للعنف ابتداء، بما يدفعه دفعا للعنف المضاد انتهاء، أو تعرض المعتدل للتطرف والعنف ابتداء، بما يدفعه دفعا واضطرارا للتطرف والتخلي عن الاعتدال أولا ثم للعنف انتهاء على غير رغبة سابقة منه.

وبحكم ما يقترن بالتطرف من التعصب والانغلاق على الذات والمعتقد، فإنه يوصل صاحبه في النهاية إلى حدود الاعتقاد بأن الآخر المختلف لا يستحق حتى أن يوجد ولا أن يستمر في الحياة، لأنه ليس خارجا عن العقائد التي يؤمن بها المتطرف ومخالفا لما يؤمن به هذا الأخير، بل ولأنه شر وخطر عليهما أيضا، ومن ثم، فلا بد من إزالته اتقاء لشره وخطره. لذلك، لا يقبل المتطرف بتعدد المشارب، لأنه لا يعترف بغير مشرب واحد هو مشربه، ولا يرضى بتعدد الألوان، لأنه لا يرى غير لون واحد هو لونه، وحيث إن لا أحد يدين نفسه أو

يحكم عليها بالضلال، إلا ما ندر، فسيكون مشرب المتطرف هو المشرب الوحيد الصافي والطاهر، ويكون لونه هو اللون الوحيد الواضح والساطع، ليكون هو الطاهر المتطهر النقي السريرة، وغيره الفاسق المدنس الذي إن لم يَطهُر ويتطهّر مثله، فلن يكون جديرا بإنسانيته بل ولا حتى بحياته التي على المتطرف أن يخلصه منها أملا في أن يكون عذابه وموته القاسي في الدنيا سبيلا لغفران ذنوبه والعفو عنه في الآخرة، ألم يخبرنا التاريخ أن أعضاء محاكم التفتيش الدينية الكاثوليكية اعتقدوا أن واجبهم الديني، بل وحتى الإنساني، يقضي عليهم بأن يقاتلوا الكفار من اليهود والمسلمين وحتى المسيحيين من غير الكاثوليك، ويقتلوهم حيثما ثقفوهم، وأن الثوريين التقدميين أمثال روبسبيير اعتقدوا أن واجبهم الثوري أن يقتلوا الرجعيين أمثال الملك والنبلاء، وهو ذاته واجب المتطرفين الحديثين والمعاصرين ضد أعدائهم على تعدد انتماءات هؤلاء وهؤلاء وتنوع ولاءاتهم بما لا يستثني أحدا مما نعيشه اليوم ونعاني منه جميعا من مقدمات التطرف ونتائجه السلبية.

ويمكن القول تأسيسا على ما تقدم:

– إن التطرف ذو دلالة عام على كل أشكال الغلو والمبالغة سواء في التشدد أو التساهل، فليس المتطرف من يتجاوز حد التوسط والاعتدال في تشدده في التفكير والسلوك فحسب، بل والمتطرف من يتجاوز حد التوسط والاعتدال في تساهله في التفكير والسلوك أيضا، ولكن الغالب على التطرف استخدامه لوصف الغلو والمبالغة في التشدد (الإفراط) دون الغلو والمبالغة في التساهل (التفريط).

– إن التطرف نقيض الاعتدال والتوسط ورديف الغلو والمبالغة مما يتراوح بين حدي التطرف في الإفراط (التشدد) والتطرف في التفريط (التساهل)، وكلا الحدين مذموم، لأن الأصل فيهما هو التطرف، والتطرف مذموم بذاته.

– إن التطرف نقيض العلم ورديف الجهل الذي يتراوح بين حدي التطرف في الإفراط (التشدد) والتطرف في التفريط (التساهل)، وكلا الحدين مذموم، لأن الأصل فيهما هو التطرف، والتطرف مذموم بذاته.

– إن التطرف لا يقتصر على فرد أو جماعة دون غيرهما، ولا على زمن دون سواه، ولا على موضوع دون آخر، ولا ينحصر في جانب فحسب، فأبعاد التطرف متعددة عقلية فكرية

وعملية سلوكية، وأشكال التطرف متنوعة سياسية وثقافية واجتماعية، وموضوعاته مختلفة عرقية ودينية ومذهبية. وإذا كان التطرف الديني، ومن ثم المذهبي، هو السائد اليوم في المجتمعات العربية والإسلامية كما في المجتمعات الغربية، فقد ساد فيها من قبل في عقدي الستينيات السبعينيات، التطرفان القومي واليساري.

– إن شيوع ظاهرة استهداف المتطرفين دينيا ومذهبيا اليوم للمتدينين غير المتطرفين وغير المتدينين من القوميين واليساريين، بل وحتى استهداف هؤلاء المتطرفين لبعضهم أيضا بذرائع شتى، لا يماثله إلا شيوع ظاهرة استهداف القوميين واليساريين في الماضي لبعضهم ابتداء، ولمخالفيه من أتباعهم انتهاء، مثلما استهدفت الجماعتان بعدائهما المتدينين، بذرائع شتى أيضا، وكل يصف نفسه بالاعتدال، بقدر ما يصف غيره بالتطرف في تبادل مستمر ومتصاعد لهذا النوع من الاتهامات.

– إن التطرف يعاني أيضا من الإساءة والقصدية والتضاد في توظيف معانيه ودلالاته، حيث يجري استخدامه لوصف الحالة الواحدة سلبا وإيجابا في آن واحد، تعبيرا عن وجهة نظر من يستخدمه لوصف تلك الحالة وطبيعة تصوره لها وموقفه منها، تأثرا منه باختلاف سياقات التاريخ والاعتقادات السائدة فيه والمصالح المسيطرة عليه من وقت لآخر بما ينتهي برواية القصة الواحدة بصور مختلفة، حيث تُستخدم مصطلحات التطرف والمتطرف عند شخص ما للدلالة على "القتال والمقاتل من أجل العدالة والحرية والمساواة"، وتُستخدم عنده أو عند غيره للدلالة على "القتال والمقاتل ضد العدالة والحرية والمساواة ".

– إن التطرف ليس محمودا لذاته ولا مذموما لذاته، بل هو رهن في الحالتين بالأسباب والأهداف التي تكمن وراء استخدامه في كل حالة من جهة، ووجهة نظر وموقف من يستخدمه لوصف فكر وسلوك الآخرين بقصد المدح أم الذم من جهة ثانية. وكان السيناتور اليميني باري غولدووتر الذي خسر أمام ليندون جونسون في الترشيح للرئاسة الأمريكية عام ١٩٦٤، قد قال في مؤتمر الحزب الجمهوري في العام نفسه: "إن التطرّف في الدفاع عن الحريّة ليس رذيلة، والاعتدال في مسعى العدالة ليس فضيلة"، ليعكس بذلك، الطبيعة الذاتية والنسبية للموقف من التطرف ونقيضه الاعتدال واستخداماتهما، ويعبّر عن وجهة نظر لا ترى

في التطرف رذيلة ولا في الاعتدال فضيلة في حد ذاتهما، بقدر ما تربط رذيلة التطرف والاعتدال أو فضيلتهما بالقضايا التي يدوران حولها، والأهداف التي يسعيان إلى تحقيقها.

ثانيا: في الصناعة الإنسانية للإنسان..

بات من ثوابت الخبرة العملية وبديهيات المعرفة النظرية اليوم، انفراد النوع الإنساني بسياق تطبيقي تفصيلي خاص لعملية توفير متطلبات الحياة وحماية الذات واستمرار النوع التي يشترك مع النوعين النباتي والحيواني في سياقاتها التطبيقية الكلية العامة، بحكم انفراد الإنسان بكونه نوعا طبيعيا عضويا واجتماعيا عاقلا في آن واحد. وتظهر أهم أسباب ونتائج هذا التميز في ثلاث خصائص متكاملة ومتفاعلة يتسم بها الطفل الإنساني هي:

– إن الطفل الإنساني يولد عاجزا عن التكيف مع البيئتين الطبيعية والاجتماعية المحيطتين به عجزا لا مثيل له في الأنواع الحية الأخرى ومواليدها، لأن الولادة البيولوجية للطفل الإنساني تحدث قبل اكتمال نمو قدراته الحسية والعقلية والاجتماعية وتطورها مما يجعله في حاجة لحل مشكلة تكيفه البيولوجي اعتمادا على رعاية الآخرين له واعتنائهم به جسديا لعجزه عن القيام بذلك عمليا.

– إن الطفل الإنساني يولد ويعيش في ظل أشكال ودرجات متنوعة من العلاقات الاجتماعية والأنشطة العقلية والجسدية التي لا يمتلك عند ولادته الشروط العقلية والجسدية والمهارات اللازمة لممارستها مما يجعله في حاجة أيضا لحل مشكلة تكيفه العقلي الاجتماعي اعتمادا على رعاية الآخرين له وإعدادهم وتأهيلهم له عقليا واجتماعيا لعجزه عن القيام بذلك عمليا.

– إن الطفل الإنساني يولد ممتلكا للقدرات اللازمة لتعلم واكتساب المعارف العقلية والمعايير القيمية والمهارات السلوكية التي يحتاجها في حياته الطبيعية والاجتماعية بشكل لا مثيل له في الأنواع الحية الأخرى ومواليدها.

وبحكم غلبة الطبيعة العضوية الغريزية على الأنواع النباتية والحيوانية وجملة خصائصها واحتياجاتها ونشاطاتها، بما في ذلك الخصائص والاحتياجات العقلية والاجتماعية المحدودة منها في بعض الحيوانات، تكون فصائل النوع النباتي كلها، وغالبية فصائل النوع الحيواني، قادرة على حل مشكلة تكيفها البيولوجي حال ولادتها، أو بعد وقت قصير منها بالنسبة لبعضها بما يؤهل أفرادها لممارسة نشاطاتهم النوعية اعتمادا على قدراتهم الغريزية بشكل أساس

وفي كل الأحوال. وبحكم غلبة الطبيعة العقلية الاجتماعية على النوع الإنساني وجملة خصائصه واحتياجاته ونشاطاته، بما في ذلك العضوية الغريزية منها، يكون حل النوع الإنساني لمشكلة تكيفه البيولوجي مجرد جزء من حله الكلي لمشكلته الحياتية التي يعتمد حله لها وبشكل أساس وكلي على قدرته العقلية الإدراكية وخصائصه الاجتماعية السلوكية. وعليه، يمكن القول "إن الطفل الإنساني، بالمقارنة بأطفال الأنواع الأخرى، يكون بطبيعة تكوينه البيولوجي في حاجة إلى مدة أطول من حيث الاعتماد على الكبار المحيطين به، فهو لا يولد مزودا بالأنماط السلوكية الأولية التي تتوفر لدى الأنواع الأخرى، وتُمكّنها من الاعتماد على نفسها في وقت مبكر جدا..ويعوضُ الطفل الإنساني عن هذه الأنماط، قدرته الفائقة على التعلم، إي إمكانية اكتسابه لأنماط من السلوك تساعده على التكيف".

وكان أرسطو قد قال منذ وقت مبكر "إن الولد كائن غير تام"، ووافقه عليه جان جاك روسو بقوله: "نولد ضعافا في حاجة إلى القوة، ونولد مجردين من كل شيء في حاجة إلى العون، ونولد حمقى في حاجة إلى التمييز"، وأكده جون ديوي بملاحظته: "أن مواليد البشر من الفجاجة بحيث لو تركوا لأنفسهم بدون إرشاد الآخرين ومعونتهم، لما تمكنوا من اكتساب الاستعدادات الأولية الضرورية للحياة البدنية، وأنهم عند المقارنة تتعادل كفّتهم أمام الكثيرين من صغار حيوانات أدنا مرتبة من البشر"، وأكده أيضا ريمون رويه حين قال إن "الحيوان هو ما هو عليه منذ ولادته، أو يكونه فيما بعد في سرعة عن طريق نضجه"، أما الإنسان فعليه "أن يصبح ما عليه أن يكون" على حد ما اقتبس من أقوال فخته الذي قال في كتابه أساس الحق الطبيعي: "كل حيوان هو ما هو عليه ويبقى على طبيعته، والإنسان وحده {يولد} في الأصل وهو لا شيء". وبحكم عوامل اختلاف أساليب حل مشكلات التكيف البيولوجي بين النوع الإنساني والأنواع النباتية والحيوانية، فسيكون محتما على كل طفل إنساني الاعتماد في حل مشكلات تكيفه البيولوجي والعقلي والاجتماعي على رعاية الآخرين له واعتنائهم به عبر استخدامهم لمزيج من العمليات الجسدية والعقلية، الفردية والاجتماعية ذات الطبيعة المتدرجة، والمتعاقبة، والمتراكمة، والمركبة، والمتكاملة، والمتفاعلة. إن الطبيعة المادية العضوية للإنسان، تجعله محتاجا إلى حل مشكلات تكيّفه البيولوجي المادي الحسي مع هذه البيئة، بقدر ما أن طبيعته العقلية الاجتماعية، تجعله محتاجا إلى حل مشكلات تكيّفه العقلي

الاجتماعي مع الآخرين أفرادا وجماعات. ويترتب على ذلك، ارتهان وجود المجتمع الإنساني واشتراط استمراره بوجود واستمرار أفكاره وقيمه وسلوكياته بشأن مشكلات التكيف المتبادل البيولوجي والاجتماعي وحلولها، وارتهان وجود واستمرار أفكار المجتمع وقيمه وسلوكياته بقدرته على نقل تلك الأفكار والقيم والسلوكيات إلى أجياله الحاضرة والمستقبلية وتوريثها لها واستمرارها فيها وبواسطتها، وارتهان وجود هذه الأجيال واستمرارها بوجود الإنسان واستمراره فرديا ومجتمعيا مما هو مرتهن ومشروط ابتداء ودائما وأبدا بوجود واستمرار نوعين من أنشطة رعاية وإعداد وتأهيل الأجيال الإنسانية الجديدة، وهذان النوعان من الأنشطة هما:

– الأنشطة العضوية الجسدية لرعاية الأجيال الإنسانية الجديدة وإعدادها وتأهيلها بيولوجيا.

– الأنشطة العقلية الاجتماعية لرعاية الأجيال الإنسانية الجديدة وإعدادها وتأهيلها اجتماعيا.

ورأى روسو أن التربية هي وحدها التي تلبي حاجة الإنسان إلى القوة والعون والتمييز، حيث يقول "وكل ما يعوزنا حين مولدنا ونفتقر إليه في كبرنا، تؤتينا إياه التربية..والتربية تأتينا إما من الطبيعة أو من الناس أو من الأشياء، فنمو وظائفنا وجوارحنا الداخلي ذلكم هو تربية الطبيعة، وما نتعلم من الإفادة من ذلك النمو ذلكم هو تربية الناس، وما نكتسبه بخبرتنا من الأشياء التي نتأثر بها، فذلكم هو تربية الأشياء". وشرح التربوي الأمريكي جون ديوي تفاصيل الضرورة الحيوية للتربية لاستمرار الحياتين المادية والاجتماعية بقوله:

"إن الوقائع الأساسية التي لا محيص عنها لميلاد وموت كل واحد من الأعضاء المكونين لأي جماعة اجتماعية، تفرض ضرورة التربية، فمن جهة هناك المفارقة بين فجاجة الأعضاء الحديثي الولادة في الجماعة، وهم ممثلوها الوحيدون مستقبلا، وبين نضج الأعضاء البالغين الذين يعرفون معرفة الجماعة وعاداتها، ومن جهة أخرى هناك الضرورة التي لا تحتم أن يكون هؤلاء الأعضاء غير الناضجين مصونين بدنيا بأعداد كافية فحسب، بل وأن يتم أيضا تعريفهم باهتمامات وأغراض ومعلومات ومهارات وممارسات الأعضاء الناضجين وإشراكهم فيها، وإلا فقدت الجماعة خصائص حياتها المميزة...والتربية، والتربية دون سواها، هي القادرة على سد هذه الفجوة".

وإذا كان سعيد إسماعيل علي قد رأى في "التربية: العملية التي عن طريقها نقوم بتنمية جوانب الشخصية الإنسانية في مستوياتها المختلفة، فقد رأى فيها محمد لبيب النجيحي، العملية التي تكوّن الشخصية الإنسانية، عبر "تشكيل الفرد الإنساني والانتقال به من فرد بيولوجي إلى فرد له شخصية"، وهو يستند في ذلك إلى منظوره للتربية بوصفها:

"عملية اكتساب خبرات اجتماعية...ولما كانت الشخصية الإنسانية هي مجموعة الخبرات التي اكتسبها الإنسان اتساعا وعمقا واتجاها، كان معنى هذا أن التربية بإكسابها خبرات مختلفة للأفراد الإنسانيين..فإنها تكسبهم أنماطا مختلفة من الشخصية". وبذلك، تكون التربية عملية صناعة إنسانية للإنسان، عبر استخدام وممارسة مفاعيلها على الفرد الذي يتلقاها ويتفاعل معها ويذوّت مقدماتها ونتائجها وفقا لخصائصه العقلية والجسدية من جهة، وطرق ونسب تفاعله مع ما يتعرض له من تأثيرات بيئتيه المتداخلتين والمتفاعلتين الطبيعية والاجتماعية من جهة ثانية، ليكون النمط الثقافي والشخصية الإنسانية العامة (المجتمعية) والخاصة (الفردية)، محصلة لثلاثة عوامل متداخلة ومتفاعلة هي:

- عامل طبيعة الإنسان وخصائصه الإنسانية.
- عامل البيئتين الطبيعية والاجتماعية.
- عامل (التربية) بخصائصه الاجتماعية الغائية المقصودة والممنهجة التي تعيد تشكيل نتائج ذلك التفاعل وفقا لبرامجها ومقاصدها لتبدو العوامل المساهمة في صناعة الشخصية الإنسانية في صورة المخطط التالي:

عوامل صناعة الشخصية الإنسانية

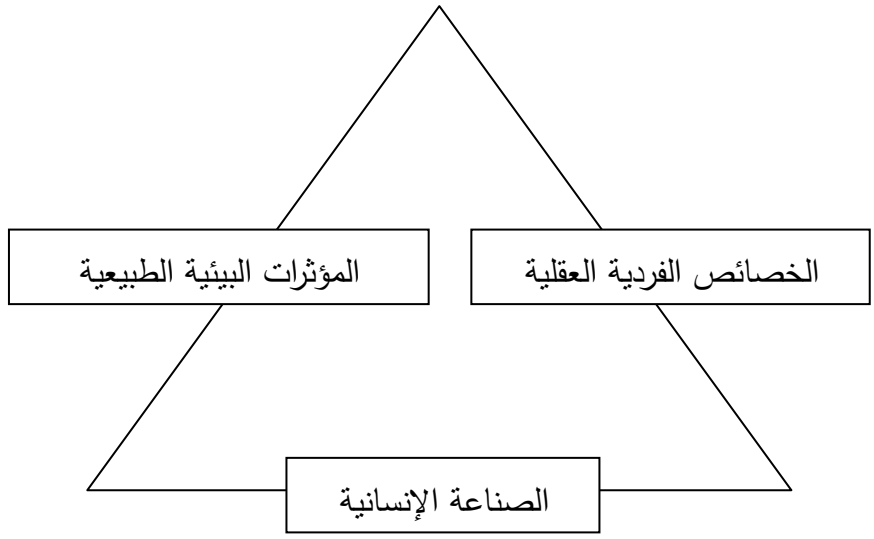

وإذا كانت محاولات دراسة الطبيعة البشرية وخصائصها واحتياجاتها وطرق تكوينها، كثيرة ومتنوعة، مثلما هي أيضا "موغلة في القدم قدم الفلسفة السياسية ذاتها، بل هي أسبق منها"، فقد انتهت هذه المحاولات جميعها على تعددها وتنوعها وقِدمها إلى الاتفاق على أن الخصائص المميزة للإنسان بوصفه كائنا عاقلا (الخصائص العقلية) واجتماعيا (الخصائص الاجتماعية)، هي ذاتها الخصائص التي تجعل من الإنسان الطرف المسئول عن تصميم وتنفيذ البرامج، العقلية والجسدية، الفردية والاجتماعية، لصناعة الإنسان للإنسان بالعمليات المسماة (التربية أو التنشئة أو الهندسة الاجتماعية)، بقدر ما هو أيضا مادة برامج هذه الصناعة وأداتها وموضوعها وهدفها. وتنفي مقدمات هذا الاتفاق ونتائجه عن عملية الصناعة الإنسانية للإنسان أي مضمون أحادي إيجابي أو سلبي، ينفرد فيه أحد أطرافها (المجتمع/الفرد الصانع) بدور المؤثر الفاعل كليا في مقابل انفراد طرفها الآخر (الإنسان المصنوع) بدور المتأثر المنفعل كليا، إذ تُوَجَّهُ تلك النشاطات والمؤثرات إلى مادة حية ذات خصائص وقدرات واحتياجات وأهداف واستجابات وانفعالات، تتلقى بها وعبرها مؤثرات بيئتيها الطبيعية والاجتماعية، بما في ذلك مؤثرات الصناعة الإنسانية للإنسان، فتستوعبها تلك المادة الحية، وتتفاعل معها، وتستجيب لها وفقا لطريقتها الخاصة والمختلفة من حالة إلى أخرى، لتجتمع في هذه الصناعة وتتفاعل مقدمات ونتائج عاملين هما:

* عامل طبيعة وخصائص الصفات والقدرات الوراثية العقلية والجسدية للأفراد.

* عامل طبيعة وخصائص عملية تكوين وبناء الخصائص الإنسانية للأفراد والمجتمعات.

وتتسبب التأثيرات المتعددة والمتباينة لهذين العاملين في مقدمات عملية صناعة الإنسان للإنسان ونتائجها في إضعاف النظريات الأحادية التي يؤكد بعضها (نظرية التحليل النفسي) على أهمية عامل الصفات والقدرات الوراثية بينما يؤكد بعضها الآخر (النظرية السلوكية) على أهمية عامل التكوين والبناء الاجتماعي للخصائص الإنسانية. حيث تؤكد نظرية التحليل النفسي التي عكستها أفكار وليم مكدوجال وآخرين غيره على الملكات والغرائز الإنسانية، وترى أن شخصية الإنسان وأفكاره وقيمه وسلوكياته مرهونة كلها بعامل الصفات والقدرات الوراثية العقلية والجسدية للأفراد، متجاهلة دور عامل الصناعة الإنسانية لهؤلاء الأفراد جسديا وعقليا ونتائجها. واتجهت النظرية السلوكية ونزعتها التجريبية ولعقود

طويلة سواء في أصولها الأولى عند كونفوشيوس والغزالي وابن خلدون وديكارت وجون لوك وديفيد هيوم، أو في شكلها المتطور عند جون واطسون وإميل دوركهايم ومدرسته الاجتماعية الفرنسية، إلى التأكيد على أن الإنسان صفحة بيضاء تكتب عليها التجربة والخبرة الخارجية ما تشاء، معطية عامل الصناعة الإنسانية للأفراد جسديا وعقليا ونتائجها الدور الأول والوحيد في تكوين وبناء الشخصية الإنسانية وتحديد أفكارها وقيمها وسلوكياتها، ومتجاهلة دور عامل صفاتهم وقدراتهم الوراثية العقلية والجسدية في تلك الصناعة. ووقفت في مواجهة هذه المدارس ذات النظريات الأحادية، وتقف على الضد منها، المدرسة الشاملة ونظريتها المركبة التي يلخصها جون ديوي بقوله:

"اعتقد أن كل تربية تبدأ عن طريق مشاركة الفرد في الشعور الاجتماعي للجنس البشري، وهذه المشاركة تبدأ في الغالب بصورة لا شعورية منذ الولادة، وهي تُشكِّلُ باستمرار قوى الفرد، وتُشبِعُ شعوره، وتُكَوِّنُ عاداته، وتُهذِّبُ آراءه ومبادئه، وتُثيرُ إحساساته وانفعالاته".

ويرى ديوي في ضوء ذلك، أن النفس في أصلها وحدة واحدة توجد فيها جميع الصفات والمميزات الإنسانية منذ الولادة، وأنها تنمو وتتشكل وتتطور نتيجة للتفاعل بين الفرد والمجتمع واشتراك الفرد الفعلي في الحياة الاجتماعية.

وتحسم المدرسة الشاملة ونظريتها موقفها من الصناعة الإنسانية للإنسان، بإعلانها أن الإنسان كائن مركب من عناصر متفاعلة مادية بيولوجية وعقلية اجتماعية، بعضها موروث وبعضها مكتسب، وأن أفكاره وقيمه وسلوكياته، محصلة للتفاعل الحركي الحي بين مكوناته الوراثية ومكتسباته البيئية التي لا يمكن الفصل بينها لا نظريا ولا وعمليا. إذ تتأثر الطبيعة البيولوجية الفطرية الموروثة للإنسان بتفاعلاته مع مكونات بيئتيه الطبيعية والاجتماعية ومكتسباته منهما، بقدر ما تؤثر أيضا في هذه التفاعلات والمكتسبات ونتائجها، ليتعذّرَ تماما أي فصل في تكوين الإنسان الجسدي والعقلي والسلوكي بين ما هو غريزي فطرى موروث وما هو عقلي اجتماعي مكتسب، مثلما هو متعذر أيضا الوصول إلى تحديد تفصيلي دقيق ومؤكد بشأن مقدار ونوعية تأثير أي من وسائل وأساليب الصناعة الإنسانية للإنسان في عصر معين أو مجتمع ما أو فرد بذاته بفعل الطبيعة المتداخلة والمتفاعلة والمتكاملة والمتراكمة لعمليات هذه

الصناعة والطرق التي تؤثر بها في الأفراد والمجتمعات، وطبيعة استجابتهم لتلك العمليات وتقبلهم لمؤثراتها، مما يؤكد في النهاية مسؤولية الصناعة الإنسانية للإنسان جسديا وعقليا وسلوكيا عن تكوين وبناء الطبيعة الإنسانية وتعيين خصائصها المادية والمعنوية على المستويين الفردي والجماعي. ووفقا لرؤية هذه المدرسة، فإن دور الصناعة الإنسانية للإنسان بالنسبة للأفراد وتحديد طبيعتهم ورسم ملامح شخصيتهم الإنسانية، لا يقتصر على تزويدهم بأفكارهم وقيمهم وسلوكياتهم فحسب، بل وتزويدهم أيضا بما يحتاجونه من المعارف والمهارات المتعلقة بوسائل وأساليب المزج بين جملة ما تزودهم به هذه الصناعة، وتعلمهم إياه، وتصنعه فيهم، وبين ظروف وأشكال وتوقيتات استخدامهم لهذا المزيج. وتختلف نتائج ذلك كله من فرد لآخر وفي الفرد الواحد من وقت لآخر، لأن لكل فرد طريقته الخاصة في استبطان ما صُنع عليه واكتسبه من تلك الصناعة، حيث تختلف أشكال تلقي الأفراد للمؤثرات الخارجية، بما في ذلك مؤثرات الصناعة الإنسانية للإنسان، وأنواع استجاباتهم لها، باختلاف صفاتهم وقدراتهم العقلية والجسدية والسلوكية الموروثة والمكتسبة وخبراتهم وتجاربهم الفردية والجماعية. ويرى الانثروبولوجيون المهتمون بالثقافة أن كل إنسان يؤوِّلُ ذاتيا المقدمات والنتائج المباشرة وغير المباشرة للمؤثرات الخارجية التي يتعرض لها ومكتسباته منها، وفي مقدمتها عمليات الصناعة الإنسانية للإنسان، أي أن الإنسان (يُذَوّتُ) ذلك كله، بأن يضفي عليه خصائصه وتصوراته الذاتية، ويفهمه ويتفاعل معه بطريقته الخاصة، وبأشكال درجات مختلفة من الاتساع والعمق والكثافة. وعليه، فإذا كان الإنسان يكتسب أنماط شخصيته وأهدافها، وأساليب حياته ومعانيها، وطرق تصرفه فعلا وانفعالا، من المجتمع بالصناعة الإنسانية للإنسان، فإن ما يكتسبه من ذلك كله، هو مجموعة متنوعة وذات طبيعة غير نهائية من العناصر والأبعاد التي يختار منها، وبإرادته الذاتية، ما يعتقد أنه معبر عنه وملائم له منها، ويفهمها ويعيد تركيبها على الصورة التي تناسبه وتستجيب لاحتياجاته. ويفترض أحد الباحثين أن مسؤولية هذه الصناعة عن تكوين وبناء الإنسان، تُلزمُها بعدم الاكتفاء بتزويده بأنماط شخصيته وأهدافها، وأساليب حياته ومعانيها، وطرق فعله وانفعاله فحسب، بل وبتزويده أيضا بالقدرة على خلق إرادته الذاتية والتحكم فيها والسيطرة عليها، ليكون قادرا في النهاية على اختيار ما يراه مناسبا

من تلك الأنماط والأساليب والطرق، وتفسيرها وتشكيلها طبقا لاحتياجاته وأهدافه الشخصية والظرفية.

وإذ ينتهي بنا ما تقدم إلى القول بأن الإنسان يشترك في تكوين وبناء الخصائص الإنسانية لنفسه ومجتمعه مرتين، مرة في صغره بوصفه (مصنوعا)، ومرة ثانية في كبره بوصفه (صانعا)، فإنه ينتهي بنا أيضا إلى القول بأن الصناعة الإنسانية للإنسان عملية تفاعلية حية تكون نتائجها النهائية بالنسبة للإنسان وفي المرتين مزيجا مركبا ومتفاعلا من العوامل الجسدية والعقلية، الطبيعية والمجتمعية، الموروثة والمكتسبة، الفردية والجماعية، الذاتية والموضوعية. وإذ يختلف أفراد المجتمع الواحد، وحتى الأسرة الواحدة، في أشكال ودرجات تلقيهم وتعلمهم للأنظمة الفكرية والسلوكية السائدة في مجتمعاتهم، وطرق استجاباتهم لها وتفاعلهم معها، فإنهم يذوّتون كل ما يتلقونه من العناصر المفاهيمية والتطبيقية في تلك الأنظمة بإعادة كل فرد وجماعة منهم صياغتها جزئيا أو كليا وفقا لخصائصه الذاتية وقدراته العقلية والجسدية الموروثة ومعارفه الفكرية ومهاراته السلوكية المكتسبة. لذلك، نلاحظ أن مظاهر التشابه بين أنماط تفكير وسلوك أفراد المجتمع الواحد، والأسرة الواحدة أيضا، لا تجعل منهم جميعا أنموذجا إنسانيا واحدا متماثلا تطابقيا، لأن جانبا من ذلك التشابه، تشابه شكلي وخارجي وعمومي مما يفسر ظاهرة الاختلاف النسبي وانعدام التماثل التطابقي بينهم حتى وإن تماثلت الأطر العامة لأنظمتهم الحياتية. وبحكم الاختلاف الطبيعي في شكل ودرجة ونوع التأثير الذي تمارسه الأنظمة الفكرية والسلوكية في صناعة الطبيعة الإنسانية الفردية والمجتمعية، وتنوع نتائج تلك الصناعة من فرد ومجتمع إلى آخر حتى عندما تتماثل مقدماتها بالنسبة لجميع الأفراد في المجتمع الواحد، فستختلف وبشكل طبيعي أيضا الطبائع الإنسانية وتتنوع خصائصها حتى في إطار المجتمع الواحد والأسرة الواحدة، فمهما بلغت درجة تشابه الناس مع أسلافهم وأقرانهم، فإنها لا تجعل أيا منهم صورة مستنسخة عن الآخرين، ولولا هذا الاختلاف الجزئي أو الكلي لكان السلوك الإنساني العام آليا ميكانيكيا تتطابق فيه أقوال الأفراد في الظروف والمواقف المتشابهة، وتتماثل أيضا أفعالهم وردود أفعالهم على الدوافع والمحفزات المتماثلة في الأسرة الواحدة والمجتمع الواحد والحضارة الواحدة.

ثالثا: في الصناعة الإنسانية للتطرف..

إن المطابقة بين المحورين المتقدمين (التطرف، الصناعة الإنسانية للإنسان)، يمكن أن تنتهي بنا إلى استنتاج ما يلي:

– إن التطرف، وحاله في ذلك حال الطبائع والسمات الإنسانية كلها، ليس من الطبائع والسمات التي تنتقل من الأجيال السابقة إلى اللاحقة بالوراثة البيولوجية، ولكنه طبيعة وسمة اجتماعية مكتسبة تنتقل بين الأجيال بالصناعة الإنسانية للإنسان فردا ومجتمعا، فالإنسان الطبيعي لا يولد متطرفا ولا حتى معتدلا، بل يولد ولديه استعدادات أولية للتطرف أو الاعتدال، ثم تعمل صناعة الإنسان للإنسان لاحقا على تنمية تلك الاستعدادات وتطويرها وترسيخها، أو تعمل على إضعافها والقضاء عليها واقتلاعها، تبعا لطبيعة تلك الصناعة ومقاصد وأهداف القائمين عليها، وكما هو الحال مع الاستعدادات الإنسانية الأولية كلها.

– إن التطرف صناعة إنسانية جملة وتفصيلا، لكنه قد يحدث ابتداء بابتداء الصناعة الإنسانية للإنسان منذ مولده بتربيته وتنشئته على التطرف، أو قد يحدث انتهاء بفعل تطرف يمارسه إنسان على إنسان آخر لم ينشا على التطرف ولا تربى عليه، فيدفعه تطرف الآخر معه وضده إلى التطرف دفعا، بعد أن لم يكن متطرفا من قبل، أو يدفعه تطرف الآخر لأن يكون متعصبا وحتى عنيفا إذا كان قد نشأ متطرفا بالأصل.

– إن التطرف صناعة إنسانية جملة وتفصيلا، لأنه نتيجة صناعة إنسان لإنسان آخر على التطرف ابتداءً أو انتهاءً، ولأن الإنسان يمارس تطرفه على الإنسان، لأهداف يبتغيها إنسان، بأدوات صنعها له إنسان، وزوده بها إنسان، وعلمه استخدامها إنسان، فالتطرف صناعة إنسانية في نشأته وتطبيقه ومادته ووسائله وأساليبه وأهدافه ونتائجه.

– إن التطرف صناعة إنسانية جملة وتفصيلا، لأن ما يحصيه الباحثون من أبعاد التطرف، السياسية–الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والفكرية، أبعاد إنسانية كلها أولا وأخيرا.

– إن التطرف صناعة إنسانية جملة وتفصيلا، لأن التصدي له عند ظهوره، أو الوقاية منه قبل ظهوره، أو علاجه نتائجه بعد ظهوره، كلها صناعة إنسانية أيضا، فالإنسان هو من يخطط ويمول وينفذ، أو يعطّل، نشاطات تصدي الإنسان للتطرف أو وقايته أو علاجه منه على مستوى البرامج والأهداف والوسائل والأساليب.

- إن التطرف صناعة إنسانية جملة وتفصيلا، لأن نجاح نشاطات التصدي له والوقاية منه وعلاجه، مرتهن بثلاثة شروط إنسانية:
  - شرط صواب التشخيص الإنساني لطبيعة التطرف وأصله وأسبابه.
  - شرط صواب الاختيار الإنساني للوسائل والأساليب المناسبة للتصدي للتطرف أو الوقاية منه أو علاجه في ضوء نتائج التشخيص الصائب لطبيعته وأصله وأسبابه.
  - شرط صدق نية القائمين على التصدي للتطرف أو الوقاية منه أو علاجه بعد صواب تشخيصه وصواب اختيار الوسائل والأساليب المناسبة لذلك كله، وجدية مسعاهم في هذا الخصوص.

والعكس صحيح تماما أيضا.

- إن التطرف صناعة إنسانية جملة وتفصيلا ذات بعدين زمنيين اجتماعيين:
  - البعد الزمني المبكر والسابق بمبادرة المؤسسات الاجتماعية إلى صناعة الأجيال الإنسانية، وخصوصا الجديدة منها، وفق أنموذج مصمم ومخطط سلفا، يزودها بخصائص وطبائع وخصال معتدلة متوسطة، تتقبل التعايش مع الآخر المختلف فكرة وموضوعا، والتفاعل معه سلميا وايجابيا.
  - البعد الزمني المتأخر واللاحق بمعالجة المؤسسات الاجتماعية للأسباب التي جعلت إنسانا يصنع إنسانا آخر صناعة متطرفة، أو يمارس نشاطات تدفع إنسانا آخر إلى التطرف دفعا وتجبره عليه إجبارا، بعد أن لم يكن التطرف بالأصل من سمات هذا الأخير ولا طبائعه التي جرت صناعته عليها.

- إن التطرف صناعة إنسانية جملة وتفصيلا، ينطبق ما قيل ويقال عنها وبالشكل والقدر ذاتهما على الصفات الإنسانية كلها كنتائج لصناعات اجتماعية أخرى فرعية متعددة ومتنوعة، بما في ذلك نقائض التطرف مثل الاعتدال والوسطية، مثلما ينطبق أيضا على التعصب ونقيضه التسامح، والانغلاق ونقيضه الانفتاح..الخ

وننتهي مما تقدم إلى: أن لتطرف صناعة اجتماعية، مثلما أن نقائضه، الاعتدال والوسطية، والتسامح والانفتاح، صناعة اجتماعية أيضا، والصناعة الاجتماعية، أيا كان موضوعها وهدفها والقائم على أمرها، لا تتماثل في طبيعتها ولا مقدماتها ونتائجها مع الطبيعة

والمقدمات والنتائج النمطية الميكانيكية للصناعة المادية السلعية، فالإنسان الصانع والمصنوع، كائنات حية ومتحركة ومتغيرة، بما يجعل صناعة الإنسان للإنسان اجتماعيا، صناعة حية ومتحركة ومتغيرة في طبيعتها ومقدماتها ونتائجها جملة وتفصيلا.

مراجع مختارة

– أرسطوطاليس. السياسة. نقله إلى العربية: أحمد لطفي السيد. القاهرة. مطبعة دار الكتب المصرية. ١٩٤٧.

– أوليفييه ربول. فلسفة التربية. ترجمة: جهاد نعمان. ط٣. بيروت. منشورات عويدات. ١٩٨٦.

– جان جاك روسو. إميل أو تربية الطفل من المهد إلى اللحد. نقله إلى العربية: نظمي لوقا. ب ط. القاهرة. الشركة العربية للطباعة والنشر. ب ت.

– جون ديوي. التربية في العصر الحديث. ترجمة: عبدالعزيز عبدالمجيد ومحمد حسين المخزنجي. القاهرة. مكتبة النهضة المصرية. ١٩٤٩. ج١.

– ـــــــــــــ. الديمقراطية والتربية. ترجمة: نظمي لوقا. ب ط. ب م ن. مكتبة الانجلومصرية. ١٩٧٨.

– خلدون حمودة. فن التطرف. دار ناشري للنشر الالكتروني. ٢٠١٢.

– ريمون رويه. الممارسة الأيديولوجية. ترجمة: عادل العوا. ط٢. بيروت. منشورات عويدات. ١٩٨٩.

– سعيد إسماعيل علي. فلسفات تربوية معاصرة. الكويت. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. سلسلة عالم المعرفة–العدد١٩٨. ١٩٩٥.

– صالح الحسن. أ ب العنف..رؤية إسلامية أولية في ثقافة التسامح.

Alfeker. Net.

– عفيف الأخضر. التطرف، الإرهاب، العقل والحداثة، العلمانية، التعليم.

yassarweb@ gmail.com

– مجموعة من الكتاب. نظرية الثقافة. ترجمة: علي سيد الصاوي. الكويت. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. سلسلة عالم المعرفة–العدد٢٢٣. ١٩٩٧.

– محمد لبيب النجيحي. الأسس الاجتماعية للتربية. ط٦. القاهرة. مكتبة الانجلومصرية. ١٩٧٦.

– محمود حسن إسماعيل. التنشئة السياسية: دراسة في دور أخبار التليفزيون. ط١. القاهرة. دار النشر للجامعات. ١٩٩٧.

– معتز الخطيب. الغضب الإسلامي..تفكيك العنف..دراسة نقدية. ط١. دمشق. دار الفكر. ٢٠٠٧.

– هاينز يولاو. فن السلوك السياسي. ترجمة: لجنة من الأساتذة الجامعيين. ط١. بيروت. دار الآفاق الجديدة. ١٩٦٣.

---

[١] صحيح البخاري كتاب الشروط (٢٥٨٣)، صحيح مسلم كتاب الإيمان (٢٠، ٦٠، ٦٨)، سنن الترمذي كتاب النذور والأيمان (١٥٣٥)، سنن النسائي كتاب الجهاد (٣٠٩٢)، كتاب تحريم الدم (٣٩٧٣)، سنن أبي داود كتاب الجهاد (٢٦٥٠)، سنن ابن ماجه كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها (١٠٧٩)، مسند أحمد (١٣٩/١، ١٩/١)، سنن الدارمي كتاب الجهاد (٢٤٠٥).